المقدمة

يعد التاريخ من أكثر العلوم أهمية لأية أمة على سطح الأرض، لأنه عبارة عن تفاعل بين مجموعة العلاقات البينية والمحيط الطبيعي، الذي يعيش فيه الانسان، ووسيلة لفهم الذات، والحاضر، وتكوين تصور جزئي للمستقبل المجهول، ولذلك لا بد للإنسان من فهم التجارب التي مر بها، وفي نفس الوقت تجارب الأمم الأخرى، من خلال التفكير بها لا حفظها وسردها، حتى تكون المرشد الرئيس في تصرفاته وتجنب أخطائه، ولكن مما يؤسف له أن الانسان مهما قرأ التاريخ، فانه كثيراً ما يكرر أخطاء الماضي، بدلاً من تجنبها، فالتاريخ يعلمنا أن امتلاك القوة يؤدي إلى الثمالة، والثمالة تؤدي إلى الاضرار بصاحبها ومن حولها، ومع ذلك فكلما جاءت أمة وامتلكت ذلك، سرعان ما تحاول أن تستخدمها لإخضاع الآخر، مستخدمة نفس المبررات والأساليب الملتوية، التي تقوم على صياغة مجموعة من القيم والمثل العليا، كامتلاك الحقيقة المطلقة، ونشر الفضائل، وإنقاذ البشرية، واحقاق العدل والسلم، حتى جعلت من الإنسان العدو الأكبر للإنسان.

يعد المؤرخ حلقة الوصل بين إنسان الماضي وإنسان الحاضر، فعند سرده لأحداث لا يكون هدفه الرئيس حفظها عن ظهر قلب، بل لتذكير الناس بمجموعة من التجارب، ليقارن فيها بين ما كانت عليه الأمة وما صارت إليه في تاريخها الحديث، وكذلك وسيلة لنقد الأوضاع القائمة بشكل غير مباشر، خاصة عندما تكون سطوة السلطة جاثمة على صدور الناس، ولا تسمح بحرية القول والعمل ضد سياستها الحكيمة، كما تصفها الأنظمة الاستبدادية من وجهة نظرها، فلذلك يلجأ المؤرخ للتعبير عن رفضه للواقع، من خلال استعراض حركة التاريخ في الجانب السياسي، بهدف تبيان سلبيات السياسات الاستبدادية في الماضي ، وإظهار مساوئها ، وحتى ينبه القارئ ويثيره لضرورة عقد مقارنة بين ذلك الماضي وزمانة الحاضر.

كانت الحاجة ماسة لدى المسلمين منذ اللحظة الأولى لكتابة تاريخهم خاصة، بسبب ذلك الارتباط العضوي بينه وبين الرسالة التي جاء بها الرسول، والتي تتمثل في ابراز

الإسلام كثورة إصلاحية لا مثيل لها على مر العصور، وأنها خاتمة الرسالات السماوية ومتممتها. فكان لا بد من استعراض تاريخ الأديان والرسل، والتعرف عليهم لاثبات هذه الحقيقة، كما أصبح التاريخ ضرورة لتفسير القرآن وفهمه، ودراسة ما احتواه من قصص حول الأمم السابقة، ولذلك أصبح التفسير والتاريخ عبارة عن حلقتين متصلتين برباط عضوي، اذا ما تم فصل أحدهما عن الاخر ظهر الخلل واضحاً، ويضاف إلى ذلك ما احتوته آيات القرآن من دعوة واضحه لإعمال العقل في جميع مناحي الحياة ، والتي كان على رأسها ضرورة الاتعاظ والاعتبار بأحداث الماضي.

ومع توسع العالم الإسلامي، وازدياد تياراته الفكرية والثقافية والحزبية، ولجوء هذه التيارات للبحث عن شرعيتها داخل النصوص القرآنية، وبالتالي فشلها في التلاعب بالقرآن، لجأت هذه الجماعات إلى التلاعب بالأحاديث التي نسبت إلى الرسول، فما كان من المؤرخين إلا التصدي لهذا التيار، من خلال كتابة تاريخ العالم الإسلامي، بعد أن أغرقت هذه الفئات الكتب بالأحاديث الموضوعة، ولا نستثني من ذلك أحداً من التيارات والفرق الإسلامية أو المتسترة تحت راية الإسلام، كالشعوبية مثلاً، ولذلك أصبح التاريخ من أهم الوسائل لتنقيح الحديث، من خلال عرض إما سيرة الرواة، أو سيرة الرسول نفسه.

أفرزت حركة الفتح واندفاع المسلمين اتجاه الدول المجاورة شعور المسلمين بالتميز، وبأن لهم تجربة فريدة بإسقاط أعظم دولتين في ذلك التاريخ، رغبة جامحة لدى المسلمين في تدوين هذا المجد، بالإضافة إلى تعاظم الشعور القبلي لدى القبائل المشاركة، واندفاعها لإظهار دورها في خدمة حركة الفتح، وابراز دورها في خدمة الأمة والإسلام، وبذلك برز المؤرخ القبلي ، الذي اهتم بإبراز دور الأمة بشكل عام ودور قبيلته بشكل خاص في الوقت نفسه.

كما ساهمت أعمال عمر بن الخطاب بشكل واضح في الاهتمام بكتابة التاريخ، وعلى رأس ذلك وضعه للتقويم عام 16هـ/637 م ، مما أدى إلى توفر العناصر الثلاث لأي حدث تاريخي والمتمثلة بالزمن والمكان والحدث. بالإضافة إلى النظم الإدارية التي

بدأ اتخاذها ، من وضع ديوان للجيش، وديوان للعطاء، قام الأول منها على أساس القبائل، فكان لا بد إذا من معرفة أنساب القبائل، مما شجع على الاهتمام بكتابة الأنساب، ثم ديوان العطاء الذي كان أساسه القرابة من الرسول، ثم السابقة في الإسلام، أي دور الفرد في خدمة هذا الدين، مما دعا إلى معرفة تاريخ القبائل والأفراد في الوقت نفسه، لتحديد مقدار عطاء الفرد، فمن قاتل الرسول ليس كمن قاتل معه، ومن ارتد ليس كمن ثبت على الإسلام.

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على ازدياد نشاط المسلمين في كتابة تاريخهم، ازدياد نسبة المتعلمين في داخل المجتمع الإسلامي ، فلم يعد المسلم مهتماً بأنباء قبيلة واحدة، بل بفعاليات الأمة بأكملها، التي اخذت تمتد على رقعة واسعة من الأرض، تميزت بتشابك العلاقات واشتراك الأهداف ووحدة المصير، فكان لا بد من الاعتماد على الكتابة لا الحفظ .

أخذت الكتابة التاريخية في بداية الإسلام اتجاهين، أحدهما ركز على سيرة الرسول، ومحور نشاطها اعمال الرسول في الفترتين المكية والمدنية ، باعتبارهما النموذج الأفضل لبناء الأمة الإسلامية، وأن التاريخ يقدم أكبر خدمة في الحفاظ على الإسلام وقيمه، وباعتبارها أهم مأثرة دينية قد يجترحها الفرد في حياته لتحقيق السعادة في الحياة الأخرى. والتأكيد على أن التاريخ نتاج لفكرة ، فعندما جاء الإسلام، لعب دوراً كبيراً في حياة المجتمع الإسلامي، بما أحدثه من تغيير هائل في المجتمع العربي، بنقله من العصر الجاهلي وفقاً لتعبير القرآن إلى المجتمع الإسلامي صاحب الرسالة الإنسانية، بعد أن لاحظ عدد كبير من العلماء المسلمين بداية التلاعب بهذه السيرة.

أما الاتجاه الثاني فتمثل بما عرف بالإخباريين، وهم عبارة عن مجموعة المؤرخين الذين اتجهوا لكتابة وقائع التاريخ الإسلامي ، حيث انصب اهتمامهم على تتبع تاريخ الأمة منذ وفاة الرسول، وحتى الفترة المعاصرة لهم، ومن هؤلاء أبو مخنف، وعوانة بن الحكم، والمدائني، وغيرهم الكثير، وقد أدرك هؤلاء الإخباريون أن التاريخ علم قائم بذاته،

وليس مجرد علم ملحق أو تابع للعلوم الدينية، بل يمكن أن يكون له مجاله الخاص، فكتبوا سلسلة من المؤلفات التي تتضمن سلسلة فعاليات الأمة، وتناولوا ذلك إما برسائل مستقله، حيث اعتبروا كل حدث واقعة قائمة بذاتها، أو كتابة تاريخ متسلسل للوقائع في كتاب واحد، كما فعل عوانه بن الحكم.

ونتيجة لعدم وصول كتب هؤلاء الإخباريين كاملة، فان الباحث يضطر إلى جمع رواياتهم من المصادر المختلفة، لإعطاء صورة عن كتاباتهم وأسلوبهم في عرض هذه الوقائع، والبحث عن الأهداف التي يريدون الوصول إليها، وليؤكدوا أن المؤرخ ليس مجرد سارد للأخبار، بل حامل وجهة نظر ، وابن لعصره وللعصور السابقة، فبمجرد أن عوانه كتب تاريخ بني امية، قد عبر بذلك عن نقده لسياسات بني أمية من جانب، وكذلك لتوجه العباسيين الذين كانوا يرفضون الحديث عن فضائل خاصة لبني امية، بهدف تبرير ثورتهم من خلال توجيه سرد الأحداث التاريخية ، وبذلك فهو يعكس هيمنة السلطة السياسية على الكتابات التاريخية، لإدراكها أهمية هذا العلم في تبرير شرعيتها، وتبرير الكثير من المذابح والعنف الذي ارتكب تجاه بني أمية، وهو ما لا يتفق مع حقيقة أنهم قد أتوا لإحقاق العدالة والحق، والعودة إلى الإسلام الصحيح، لأن من يرفع مثل هذه الشعارات لا يسمح لنفسه بسفك الدماء والاستبداد.

ويمكن القول بأن التاريخ سلسلة من الأحداث التي وقعت في الماضي، وبحاجة إلى إعادة التفكير بها، لتصبح موجها للثقافة العامة للمجتمع، تمده بالقدرة على فهم حاضره والرغبة في استشراف المستقبل، وأن التاريخ الإسلامي إبداع ذاتي، نجم عن الحاجات الروحية والعملية للأمة الإسلامية، كما يمكن تقسيم التاريخ إلى ثلاثة أقسام عامة، الأول يطلق عليه التاريخ الميت، ويقصد به الأحداث التي لم يعد لها تأثير في حاضرنا، والثاني التاريخ الحي، وهي الأحداث التي ما زال لها أثرها في حاضرنا ونحتاج إلى استحضارها ودراستها، عندما تواجهنا الأزمات، والتي عادة ما تصحو من غفوتها عندما نحتاجها لتفسير ظواهر معاصرة وفهمها، والثالث التاريخ الزائف وهو التاريخ الذي تختلقه

أمه معينة لتبرير أعمالها والصاق مجد خرافي، بهدف تحقيق أغراض سياسيه او تبرير أعمال استعمارية، أو تحقيق آمال قومية، ولذلك فإن هدف المؤرخ البحث عن الحقيقة، وبعث التاريخ ليشكل جزءاً من حياتنا، ولا يفهم من ذلك أننا ندعو إلى أن يعيش الفرد في التاريخ وإنما ندعو إلى أن يعيش التاريخ معنا لأنه من أهم أدوات صياغة ثقافة الأمة، فكلما كان التاريخ أكثر صدقا وحكمة، كلما كان أكثر تأثيراً وأعظم وسيلة لتوجيه الفرد في حياته، وأن دراسة المؤرخ تكشف ذلك الدور الذي لعبه هذا المؤرخ في توجيه أفكار الأمة وطرح الحلول الممكنة، خاصة عندما تتشابه أحداث الحاضر مع أحداث الماضي في بعض جزئياتها، فكل من لم يقرأ تاريخه لن يستطيع معرفة من هو ، وأين هو ، وما هي التوقعات ، ولأين سيذهب في المستقبل.

واخيراً فإنني أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الدكتورة ختام مسلم في جامعة بيرزيت، لما قدمته من خدمات مشكورة بالمراجعة اللغوية لهذا البحث، والبحث السابق حول خلافة أبي بكر الصديق وبما أوردته من ملاحظات ساهمت في إثراء هذا البحث وخروجه بصورة أفضل.